الآراء النقدية للشعر العربي عند سيد قطب

م.م. علي حسين وحيد
قسم اللغة العربية ـ كلية التربية الاساسية ـ جامعة بابل

Critical opinions on Arabic poetry by Seyyed Qutb

Ali Hussein Wahid
Arabic Language Department, College of Basic Education, University of Babylon, Babylon, Iraq
Bsc.ali.wahed@uobabylon.edu.iq

الملخّص

إن لسيد قطب كأديب واعٍ وناقد بصير في العصر الحديث، آراء قيّمة ورؤى دقيقة في الشعر أدلى بها بشكل مبعثرٍ بين آثاره وكتبه. تتناول نظرياته الشعرية قضايا هامة أساسية تظلّ مثاراً للجدل ومحطاً للأنظار. لقد تمكّن سيد قطب بفكره النيّر وضميره الحيّ وإحساسه المتيقّظ من أن يتبنّى أفكاراً بديعة مبتكرة في الشعر لم يسبق لها نظير. فإنه نظر إلى الشعر نظرة باحث حصيف ملمّ بدقائقه وأسراره، أضف إلى ذلك أنه عالم بارع ومفسر عملاق للقرآن الكريم نهل من منهله العذب ونميره الصافي حتى الارتواء؛ ثم إنه تجوّل في رياض الشعر العربي وجنى من ثمارها اليافعة، حتّى حصل على مادة ثقافية دسمة مكّنته من الانغماس في غمار الشعر والتسكّع في أسراره وألغازه. فأما هذا البحث فإنه يريد تسليط الأضواء على لقطات من آراء سيد قطب الفذّة حول الشعر، وقد اعتمدنا فيه على المنهج الوصفي التحليلي المتّبع عادة في البحوث الأدبية.

الكلمات المفتاحية: سيد قطب، الشعر والشاعر، الآراء النقدية، الأدب الحديث.

Abstract

As a conscious writer and insightful critic in the modern era, Sayyid Qutb has valuable opinions and precise visions in poetry, which he expressed in a scattered manner among his works and books. His poetic theories address important and fundamental issues that remain controversial and the focus of attention. Sayyid Qutb, with his enlightened mind, living conscience, and alert feelings, was able to adopt unique and innovative ideas in poetry that were unprecedented. He looked at poetry with the eyes of a prudent researcher who is familiar with its subtleties and secrets. In addition to that, he is a brilliant scholar and a giant interpreter of the Holy Qur'an, who drank from its sweet spring and pure stream until he was satisfied. Then he wandered in the gardens of Arabic poetry and reaped from its ripe fruits, until he obtained a rich cultural material that enabled him to immerse himself in the depths of poetry and wander in its secrets and mysteries. As for this research, it aims to shed light on some of Sayyid Qutb's unique opinions about poetry, and we have relied on the descriptive analytical method usually followed in literary research.

Keywords: Sayyid Qutb, poetry and the poet, critical opinions, modern literature.

١. المقدمة وأسئلة التحقيق

الأدب يتكوّن من عناصر تميّزه عن غيره وتعطيه حياة أبديّة، ومجال الشعر الذي يكون نوعاً راقياً من الأدب هو الشعور، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتيّة محضة كشف فيها عن جانب من جوانب النفس، أو نفذ من خلال تجربته الذاتيّة إلى مسائل الكون، أو مشكلة من مشكلات المجتمع، تتراءى من ثنايا شعوره وإحساسه. «فإثارة الشعور والإحساس مقدّمة في الشعر على إثارة الفكر، على النقيض من المسرحية والقصّة، فإثارة الفكر من طبيعة العمل الفني فيهما قبل إثارة الشعور، ولذا كان موقف القاصّ أو المسرحيّ من المسائل والمشكلات موقفاً تحليليّاً، في حين يظلّ موقف الشاعر في تصويره تجميعيّاً أكثر منه تحليليّاً.» (غنيمي هلال، ١٩٦٤: ٣٨٣) فالشعر يعتمد على شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعوراً يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيّاً عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور. أضف إلى ذلك أنّ الكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائيّة، وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوّة معانيها التصويريّة الفطريّة في اللغة.

منذ زمن طويل اهتمّ كلّ قوم حسب طبعهم بوضع تعريف للشعر، فقد اهتمّ العرب بالشعر من حيث الوزن والقافية وقالوا بأنّه كلام موزن مقفّى يدلّ على معنى، وهذا يعنى أنّهم عنوا بالموسيقى خاصّة. واهتمّ اليونان به من حيث الخيال والعاطفة والعقل معاً وأهملوا الموسيقى تماماً فعرّفوا الشعر بطريقة خيالية فقالوا: إنّ الشعر مركبة يجرّها جوادان هما العاطفة والخيال، ويقودهما حوذى هو العقل، وهذه المركبة تسبح فوق الغيوم.

وقد حظى مفهوم الشعر بعناية بالغة من النقاد العرب قدامى ومحدثين على اختلاف توجّهاتهم وتعدّد مشاربهم وتباين اهتماماتهم أحياناً، بدءاً من ابن سلّام والجاحظ مروراً بالمرزوقى والقرطاجنّى وانتهاء بالنقاد المعاصرين، بكلّ ما يزخر به هذا التاريخ النقدى من تنوّع وثراء. ولم يكن الشعراء ببعيدين عن هذه الحركة النقدية الفاعلة المتفاعلة، فقد أدلوا بدلائهم وقالوا آراءهم فى أهمّ فنّ أدبى عرف به العرب حتّى جعلوه ديوان حياتهم ألا وهو الشعر. ولعلّ تعريف الشعر تعريفاً منطقياً غير يسير لأنّ كلمة الشعر إذا أطلقت أثارت فى نفوس النّاس معانى مختلفة حسب دراستهم، فالعروضيون أو اللفظيون عامّة يفهمون من هذا اللفظ صورته الظاهرة فى الوزن والقافية اللّذين يميزانه عن النثر، والمناطقة يرون فيه وسيلة مؤثّرة تبعث فى النفوس انفعالاً ما، فنظروا بذلك إلى ناحيته المعنوية، والشعراء أنفسهم أيضاً انصرفوا إلى وصف الشعر أو إطرائه دون العناية بحدّه حدّاً جامعاً مانعاً.

لسيد قطب صيتٌ ذائع وشهرة مدويّة في الأوساط العلمية والأدبية إلا أنّ معظم شهرته تعود إلى شخصيته العلمية. وللكتب التي دوّنها في حقل العلوم الإسلاميّة وتفسير القرآن الكريم دورٌ في إعطائه سمة علمية لا يُستهان بها. وممّا لا غبار عليه أنّ لسيد قطب رصيداً هائلاً في الشعر والأدب إلا أنّ شهرته العلمية طغت

على شهرته الأدبية وحال دون انتشار صيته الأدبي. لسيد فضلاً عن ديوانه الشعري آراء هامّة نقدية تعكس إلمامه بقضايا الشعر والأدب ومواهبه الخصبة في فهم الشعر وأسراره وجمالياته.

نهل سيد قطب من منهل القرآن الكريم العذب ومعينه الذي لا ينضبّ واستقى منه الكثير من دقائقه ورموزه، كما تأثّر بأستاذه العملاق عباس محمود العقّاد، حيث اعترف باستقائه من مشربه الصافي وجنيه من ثماره الناضجة، ولذلك نجد في آراءهما تشابهاً ملحوظاً يلفت الانتباه. إلا أنّ لسيد قطب وجهات نظر دقيقة تنجم عن انغماسه في خضمّ الأدب وارتشافه من عيون الشعر الصافية. ممّا زاد من قيمة آراءه الشعرية ومكانتها أنها وليدة الأيام التي بلغ فيها سيد أشدّه في العلم والأدب حيث حصل على رصيد ضخم ورأسمال كبير من الحنكة والتجربة، استثمرها في ملاحظاته ومباحثاته في الشعر والأدب.

نريد في هذا البحث المتواضع تسليط الأضواء على الناحية الأدبية والشعرية من شخصية سيد قطب المهمّشة والمغمورة حرصاً على إزاحة الستار عن البُعد الأدبي من شخصيته ونفض الغبار عن آراءه القيمة والثمينة في مجال الشعر والأدب، ونرمي في هذا المقال بالتحديد إلى البحث والإجابة عن سؤالين تاليين:

١- ما هي أهمّ وأبرز الرؤى الشعرية والأدبية التي أبداها سيد قطب في آثاره؟

٢- ما هي قيمة وأهمية ومكانة آراء سيد قطب حول الشعر والأدب؟

٢. دراساتٌ سابقةٌ

هناك دراسات وكتب كثيرة تدرس الجانب الديني من شخصية سيد قطب، ولكن ميزاته الأدبية لم تحظ بالعناية كما هو حقّه؛ فهناك مقالات وبحوث، نذكر منها على سبيل المثال ولا الحصر: «سيد قطب؛ الكاتب المصري المعاصر» للكاتب على منتظمي (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طهران، الخريف والشتاء ١٣٧٥ش)؛ يتحدّث فيها عن بعض المحطّات من حياة سيد قطب والتعريف ببعض آثاره. «نظرة إلى المراحل والخصائص النقدية لسيد قطب» للكاتبين خليل برويني وحسين جراغي‌وش (مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، الصيف١٣٨٥ش)؛ يتحدّث فيها عن آراء سيد قطب النقديّة وميزاتها. «قياس خاصية تنوع مفردات في الأسلوب: دراسة تطبيقية لنماذج من كتابات محمد مندور وسيد قطب ومحمد غنيمي هلال» للكاتب نيّر هومن ناظميان (مجلة اللغة العربية وآدابها، شتاء ١٤٢٧ق)؛ كانت هذه المقالة دراسة لغويّة في آثار هؤلاء الأدباء ومنهم سيد قطب. «سيد قطب وتراثه الأدبي والنقدي» للكاتب حسن سرباز (مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس قم)، ربيع وصيف ١٤٣١ق)؛ يتحدّث عن التأليفات الأدبيّة والنقديّة لسيد قطب. «أصداء شعر العقّاد في شعر سيد قطب» للكاتب حسن أحمد عبد الحميد (مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، ١٤١٦ق)؛ هذه المقالة رصدت بعض التشابهات بين شعر سيد قطب والعقّاد. «خصائص التصوير الفني في شعر سيد قطب» للكاتبين كمال أحمد غنيم، وحنان أحمد غنيم (مجلة الجامعة الإسلامية،

غزة، ٢٠٠٨م)؛ يتحدّث فيها عن بعض الجماليّات الفنيّة والبلاغيّة في شعر سيد قطب. «أسلوبية التكرار في التعبير عن شعور الاغتراب (شعر سيد قطب نموذجاً» للكاتبين جهانكير أميرى وفاروق نعمتي (مجلة جامعة القدس المفتوحة، فلسطين (رامالله)، ٢٠١٢م)؛ تدرس هذه المقالة شعر سيد قطب من الناحية الأسلوبيّة التي تعبّر عن الحس الاغترابي لدى الشاعر.

فمن المؤكّد وبناءاً على المطالعات التي تمّتْ حول سيد قطب وآثاره، بإمكاننا أن نقول إنّ آراءه حول الشعر وخصائصه لا تزال غير مدروسة من قبل الدارسين، وهذه المقالة تُعالج هذا الموضوع بدراسةٍ وتحليلٍ كما هو الشأن في الدراسات الأدبيّة التي تأتي في هذا الإطار.

٣. سيد قطب: ناقداً وشاعراً

سيد قطب إبراهيم الشاذلي، وُلد عام ١٩٠٦، في قرية «موشا» من محافظة أسيوط في مصر. تخرّج عام ١٩٣٣ من دارالعلوم حاملاً شهادة الليسانس في الآداب. التحق بحركة «الإخوان المسلمين» وخاض في معاركهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤، بدءاً من اعتقاله في نفس السنة، عندما اتّهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري «جمال عبدالناصر». أفرج عن «سيد» في عام ١٩٦٤، ولكنه عاد إلي السجن مرة أخرى وحُكم عليه وعلى مجموعة من أعضاء الإخوان بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم في فجر أحد الأيّام عام ١٩٦٦ (انظر: الخالدي، ١٩٩١: ص ص ٣٢٣-٤٨٢).

لقد مارس سيد قطب حياته العلمية أديباً وناقداً ولكن لم يعرفه كثير من الناس إلا كمفكّر ومفسّر إسلامي، وذلك من خلال دراساته الإسلامية المتعدّدة مثل «في ظلال القرآن»، «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «معالم في الطريق» و....، وقد أهمل ثقافته الأدبيّة والنقديّة من جانب الكثيرين وبذلك، ترك أدبه ومدرسته النقدية في زاوية النسيان (سرباز، ١٤٣١: ٤٢). مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكرة من حياته، فأخرج ديوانه الأول في عام ١٩٣٥، وديوانه الثاني في ١٩٣٧؛ وكانت الفترة من ١٩٣٠ إلي ١٩٤٠، فترة ازدهار شاعريّته (حسين، ١٩٩٣: صص١٣٧-١٣٨). وله فضلاً عن ديوانه آثار أدبية رائعة، إليك نماذج منها:

١- التصوير الفني في القرآن الكريم: أول كتاب إسلاميّ لسيد قطب الذي طبع ١٩٤٥م؛ هذا الكتاب يقوم على تقرير القاعدة العامّة المطّردة للتعبير القرآني، وهي قاعدة «التصوير الفنّي»، حيث يستخدم القرآن طريقة التصوير في مختلف موضوعاته وأغراضه. وقد أثّر هذا الكتاب في الدراسات البيانيّة الجماليّة للقرآن، التي ظهرت بعده. ٢- مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الماضي: أوّل كتاب نقديّ كتبه سيد قطب وهو في الأصل كان محاضرة ألقاها في قاعة كلية دارالعلوم، وطبع سنة ١٩٣٣م. ٣- كتب وشخصيات: كان في الأصل مقالات نقدية كتبها المؤلّف في مجلّات مختلفة كالرسالة، والمقتطف، وغيرهما، ثمّ طبعها بهذا العنوان

سنة ١٩٤٦م. ٤- النقد الأدبي؛ أصوله ومناهجه: أهمّ أثر نقديّ لسيد قطب والذي طُبع سنة ١٩٤٨م. ٥- المدينة المسحورة: قصّة خياليّة أسطوريّة، استوحاها من قصص ألف ليلة وليلة.

أُعجب سيد قطب بالآداب الشرقيّة ولاسيما الشعراء الإيرانيين مثل «حافظ الشيرازي»؛ إذ يصف غزليات «حافظ» بأنها «تساعد علي انحسار الموجة الفكريّة عن الشعر الحديث» (قطب، ١٩٨٣: ٧١)، وقارئها «يستروح فيها عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه» (ن.م: ٧١). سرّ الكلمة عند سيد قطب يكمن في استمدادها من ضمائر الشعوب، ومن مشاعر الإنسان، ومن صرخات البشريّة، ومن دماء المكافحين الأحرار؛ إذ يقول: «إنّ السرّ العجيب ليس في بريق الكلمات وموسيقى العبارات؛ إنّما هو كامنٌ في قوّة الإيمان بمدلول الكلمات وما وراء المدلولات! إنّه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حيّة والمعنى المفهوم إلى واقع ملموس.» (قطب، ١٩٨٠: ١٣٨)

الأدب وخصائصه عند سيد قطب

العمل الأدبي في منظور سيد قطب عبارة عن «التعبير عن تجربة شعورية في ألفاظ موحية» (قطب، ٢٠٠٦: ١١)؛ فعنده لفظة التعبير هي بيان لطبيعة عملية الشعر ونوعيتها، كما أنّ لفظة التجربة هي تبيّن مادة الأدب وموضوعه. والعبارة الموحية هي الإشارة إلى الغاية التي تستهدفها عملية الشعر، ومن ثمّ طبّق سيد تعريفه للعمل الأدبي على الشعر جملة وتفسيراً (ن.م). يرى سيد قطب أنّ العمل الأدبي يقوم على ثلاث ركائز أساسية تعمل على تكوينه وتحقيقه (ن.م: ٤٠):

الركيزة الأولى: الإقاع الموسيقي للألفاظ

الركيزة الثانية: الصور والظلال التي ترافق الألفاظ بغضّ النظر عن معانيها ومضامينها

الركيزة الثالثة: الآليات الأدبية والتقنيات الفنية التي يستخدمها الشاعر لإيجاد التناسق بين الألفاظ والمعاني، ومن ثمّ تحقيق العملية الأدبية.

الشعر فنّ من الفنون الجميلة

الشعر في رؤية سيد قطب هو بمثابة أحد الفنون الجميلة التي مهمته الأكبر هي الوساطة بين الواقع والمثال، وهو الذي يقرّبنا إلى القيم المُثلى التي ليس من السهل الوصول إليها على الأرض الواقع (قطب، ١٩٩٦: ١١). لقد ذهب سيد قطب إلى أنّ كلاًّ من هذه الفنون الجميلة يدعو إلى العالم الأمثل والكمال المرجوّ بشكل أو آخر؛ يخاطب كل من هذه الفنون العواطف البشرية بآليات تعبيرية مختلفة، وكلما كانت هذه الآليات أقلّ عدداً كان الفن أقرب إلى العاطفة البشرية الرقيق (ن.م).

بناءاً على ذلك عند سيد قطب فن الموسيقا يحتلّ صدارة القائمة مقارنة بسائر الفنون لقلة الوسائط التعبيرية التي يستخدم فيها لخطاب الذات البشري. ثم يليه في الدرجة الثانية الشعر لأنّه ليس فنا قليل الجدوى

وعديم الفائدة حتى يجعله الطامعون في المادة والمنصب ألعوبة بأيديهم لتحقيق مصالحهم الذاتية، بل إنه فنٌّ عالٍ وثمين يشدّ الإنسان بالطموحات يُدنيه إليها شيئا فشيئاً (ن.م: ١٢). الشعر في منظار سيد قطب إذا لم يتخطّ الإطار الضيق للحدود الشعرية ولم يواكب التطلعات الإنسانية لا يصحّ إدراجه في حقل الشعر الحقيقي والمثالي، بل الشعر الحقيقي هو الذي يخاطب الإنسان في ذاته ويجعل طائر خياله يحلّق في الآفاق السامية طليقاً، ذلک لأن الشعر من شأنه أن يحطّم الحدود الضيقة للشعور ويفتح أمامه عالماً واسعاً رحباً، يتطلع من خلاله إلى ما لا يراه في عالمه الواقع (ن.م).

الشعر في منظور سيد قطب

لابدّ للوقوف على رؤية سيد قطب تجاه الشعر من معرفة مواقفه حيال الشعر. إن في اعتقاده الشعر الواقعي يجب أن يكون مرآة صافية تعكس دواخل نفس الشاعر وأحاسيسه الكامنة. يعتبر سيد قطب الثورة العاطفية لدى الشاعر العامل الرئيسي الذي يوحي إليه بالشعر ثم يصف الشعر وصفاً رائعاً دقيقاً، وهو أن الشعر عبارة عن خفقان القلب قبل إشراقة الفكر ونبضة الحياة قبل إنارة العقل، وحالة روحية قبل حادثة فكرية، وهمسة القلوب قبل موسيقى الألفاظ (قطب، ١٩٨٣: ٤٩). كما وصف سيد الشعر في الأبيات التالية من قصيدة سعادة الشعراء بما يشبه الوصف الذي ذكرناه توّاً. فإنه وصف الشعر بأنه من أنعم الحياة وأنه يلازم البؤس والشقاء ملازمة الظلّ، ثم أن الشعر هو ذوبان الروح في بوتقة الكلمات شوقاً وحنيناً، ثم استغرب سيد قطب عدم تأثّر الناس العاديين بالشعر وعدم ذوبان قلوبهم له رغم ما نراه عند الشعراء:

الشِّعرُ مِن نِعَمِ الحَيَـــاةِ عَرَفتُهُ وَعَرَفتُ فِيهِ البُؤسَ ضَربَةَ لَازِبِ
الشِّعرُ ذَوبُ حُشَاشَةٍ مَسفُوكَةٍ أَلَماً وَوَجداً فِي حَنِينٍ ذَاهِـــبِ
مَا ضَرَّ قَوماً لَا تُذَابُ قُلُوبُهُم شِعراً وَدَمعاً مِثلَ قَلبِي الذَّائِبِ

(قطب، ١٩٩٢: ٥٣)

وفي السياق نفسه، أنّ شعر في مدرسة سيد قطب ليس وليدة المفردات فقط بل إنّه شعورٌ يتدفّق من الداخل أو شرارة تتطاير من النفس (قطب، ١٩٩٦: ٧٩).

هذا النظرة من الشعر عند سيد قطب قد تشابه بكثير إلى نظرة أستاذة العقاد؛ فالعقاد قبل كل شيء يعتقد بألوهية الشعر على أنّه مقتبس من نفس الرحمان، وإذا كان الشاعر فذّاً فبإمكانه أن يكون نسخة رحمانية بين الناس؛ لأنّ ما يقوله مستقاة من قول الرحمان، فلأمرٍ ما «كان الشاعر يلقّب بين الرومان بالفاتيس وهو الكاهن أو الرسول أو النبّى.» (هوراس، ١٩٨٨م: ٥٣)، وبعد ذلک «إنّما الشعر إحساس وبداهة وفطنة وإنّ الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلّها للفلسفة والشعر مع اختلاف فى النسب وتغاير فى المقادير.» (العقاد، ١٩٨٤م: ٣٢٢)، إذن فالعقاد كسيد قطب، يرى أنّ الشعر مزيج من الحس والفكر والعاطفة والخيال، فربّما بإمكاننا أن

نقول إنّ هذه الخصائص هى خصائص الشاعر الّتى تتجلّى فى التعبير، والتعبير عنها هو الشعر على حدّ قول العقّاد، مع ذلک بإمكاننا أيضاً أن نقول كلّ هذه المواصفات ذاتية باطنية، فلا بدّ لها من شكل خارجى أهمله العقاد فى هذا التعريف، لكنّه فى عبارة أخرى يشير إليه ويعتبره أى التعبير فاصلاً بين الجيد من الشعر ورديئه، فيقول: «الأمر الّذى لا خلاف فيه أنّ الشعر فيه الجيد والردىء إن لم يكن فيه القديم والجديد، فالجيد هو ما عبّرت به، فأحسنت التعبير عن نفس ملهمة وشعور حىّ وذوق قويم، والردىء هو ما أخطأت فيه التعبير أو ما عبّرت فيه عن معنى لا تحسّه أو تحسّه ولا يساوى عناء التعبير عنه.» (المصدر نفسه: ٢٣٦).

دور "اللفظ" في إنتاج الشعر

يرى سيد قطب أنّ للّفظ دوراً كبيراً في تحقيق عملية الشعر، وأنّه الآلية الوحيدة التي يعبّر الشاعر عبرها عن مشاعره للمتلقّي. إذاً على الشاعر إيجاد حالة من التنسيق والانسجام بين الألفاظ والأحاسيس التي يجول في خاطره (قطب، ٢٠٠٦: ٧٩-٨٠). من جهة أخرى أنّ للّفظ ثلاث دلالات تساعده على القيام بدوره في تجسيد المعنى هي: دلالات لغوية، إيقاعية، والتصويرية، وفي حال غياب أيّ من هذه الدلالات الثلاث تتقلّص قدرة اللفظ في التأثير على المتلقّي وإيصال المعنى إلى نفسه (ن.م: ٨٠).

وجوه الاشتراك والافتراق بين الشعر والقصّة

يلتقي الشعر والقصة في نقطة كما يفقترقان في نقطة أخرى؛ أمّا نقطة الالتقاء بينهما فهي في رؤية سيد قطب عبارة عن تقصّيهما لترسيم دقائق التجربة خطوة بخطوة، وتجسيد الذكريات والأحاسيس التي تكشف التجربة وذلک لإشراک المخاطب في تذوّقها والمناخ المحيط بها (ن.م: ٨٧). وأما نقطة الافتراق تتمثّل في أنّ للقصة آليات تعبيرية تستمدّ منها لرصد اللحظات الرومانسية والحالات الدراميّة كلّها؛ أما الشعر فليس له ما يؤهّله لتسجيل كلّ أحداث التجربة على غرار القصّة بل يكتفي فقط بتصوير ما يراه الأفضل، ويتخلّى عن كلّ التفاصيل التي يعتبرها عديمة القيمة والأهمية. فعلى هذا الأساس، لا نرى الاستطراد في الشعر (ن.م: ٧٣).

فضلاً عن ذلک أنّ توظيف الشاعر للغة الرمز في الشعر يجعل الشعر يختلف عن القصّة في رؤية سيد قطب. فلغة الرمز تُتيح للشاعر إمكانية التعبير عمّا بداخله من أحاسيس غامضة ومشاعر معقدة بآلية رمزية. وأما الكاتب القصصي والروائي فإنّ الأسلوب القصصي يملي عليه ضرورةَ الالتزام بوصف الأشخاص والأحداث وصفاً دقيقاً شاملاً فلا يجوز له استخدام الأسلوب الرمزى، إذ أنّ توظيف آليّة الرمز في كتابة القصّة أو الرواية قد يؤدي إلى خلق أجواء يتخلّلها الغموض والضبابية، ومن ثمّ تركُ القارئ يعاني من حالة التعقيد والتشويش الذهني (ن.م: ٩٢).

الشعور والإحساس: جوهران أساسيان للشعر

يعدّ عنصر الإحساس لدى سيد قطب المكوّن الأساسي من مكوّنات الشعر والركيزة التي يرتكز عليها صرح العمل الأدبي، فإن الشعور بمثابة حجر المحكّ الذي يميزّ به صادق الشعر عن زائفه، وغثّه عن سمينه. فلو كان الإحساس الذي يظهره الشاعر مفتعلاً زائفاً غير نابع من قرارة ذاته لن يعدّ الشعر خالداً في ذاكرة الناس بل سرعان ما يصير حادثاً عابراً يطويه النسيان (قطب، ١٩٩٦: ٧٠-٧١). وفي السياق نفسه يرى سيد قطب أنه على الباحث الأدبي أن يقوم خلال عملية التقييم الأدبي بالبحث عن أمور هامّة قبل بحثه عن جمال اللفظ أو روعة الخيال أو حتى لطف المعنى؛ بناءاً على ذلك على الأديب الإجابة على الأسئلة التالية: هل تدفّق شعره من شعور صادقٍ أو شعور مزيّف؟ أو هل كانت الطاقة الشعورية التي فجّرها خلال شعره صادقةً أو مفتعلة؟ بحيث لا صلة لها بالواقع الشعوري الذي يعيشه؟ أو هل تمكّن شعوره من اختراق ظواهر الأشياء والتوغّل في بواطنها أم أنّه شعورٌ هشٌّ يطفو على السطح ولا يغوص في العمق؟ (ن.م: ٧١).

لا تتوقّف عملية البحث الأدبي عند هذا الحدّ لدى سيد قطب بل إن الباحث عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث يجد أمامه أسئلة أخرى، فهو يريد مثلاً أن يعرف إذا ما تمكّن الشاعر من اختيار المعاني المناسبة للألفاظ أم لا؟ أو هل تمكّن من إلباس المعاني ثوباً يناسبها أم لا؟ على أية حالٍ فإن سيد قطب يعتبر إحساس الشاعر الحجر الأساس أو اللبنة الأولى التي يبني عليها سائر أجزاء شعره من الألفاظ والمضامين، فالشعر الأمثل في رؤيته هو الذي تقوم تشكيلته على الترتيب التالي (ن.م: ٧٣):

الإحساس الصادق ≤ المعنى الملائم ≤ اللفظ المناسب

فالشعر كما نلاحظ عند سيد قطب عبارة عن عملية فنية معقّدة ذات أبعاد متعدّدة تتداخل وتتشابك بعضها في بعض، أو قُلْ إنها رحلة طويلة يقوم بها الشاعر عبر آفاق المعاني والخيال، فهذه الرحلة تبدأ من شعور صادق ناجمٍ من ضمير الشاعر الفيّاض ثم لم يلبث أن تتحوّل هذه الطاقة الشعورية إلى معانٍ راقية تسمو على أجنحة الخيال. والرحلة الشعرية هذه تستمرّ حتى تنتظم المعانى في سلك الألفاظ وتتقولب في قالب الكلمات، فإذا بالشعور الذي عاشه الشاعر في بداية رحلته الشعرية يتجسّد أمام ناظري المتلقّي مرتدياً رداء الألفاظ الموحية. من هذا المنطلق ينتقد سيد قطب الشعراء الذين يحاولون التغطية على الفراغ والنقص الذي يعيشونه في الإحساس والإبداع بلجوءهم إلى الأساليب المنمّقة التي تضفي على أشعارهم التافهة بريقاً ولمعاناً سرعان ما يمحو في طرفة عين. فإذا ظنّها بعض الجهال وعديمي الخبرة شعراً لكنّ الأدباء والناقدين المستبصرين لا يعيرونها اهتماماً ولا يقيمون لها وزناً (ن.م: ٦٣).

لمّا كان الإحساس أهمّ مقومٍ من مقومات الشعر عند سيد قطب فمن الطبيعي أن يحتلّ عنده الشعر الغنائى والوجداني الصدارة نظراً للشحنة الكبيرة التي يحملها هذا اللون الأدبي (ن.م: ٧٢)؛ إلا أنّ سيد لا ينكر

أن تكون أحياناً للشعر القصصي والتمثيلي وما يضاهيهما طاقة شعورية لا يُستهان بها، وذلك حسب رؤية الفنان حيال الأحداث الجارية في القصّة والشخصيات التي وظّفها فيها. فإننا قد نلمس في هذه الفنون العواطف الصادقة التي اختزنها الأديب فيها. عزا سيد قطب في كتابه "كتب وشخصيات" (١٩٨٣: ٨٩) الإحساس في الشعر إلى العاطفة الجياشة التي تنبع من نفس الشاعر فتستثير وعيه وتُحوّله إلى كيانٍ نابضٍ بالقوة ولحركة، تتسكّع في غياهب عوالم مجهولة ومتاهاتها (ن.م: ٩٠).

الفارق الأساسي بين الشعر والنثر من حيث الطاقة التعبيرية

لدى سيد قطب نظرية فيما يتعلّق بهذا المجال؛ فإنه يعتقد أن على الشاعر تجنّب الإكثار من التعبير عما يريده، فمهمة الشاعر في نظر سيد قطب تتمثّل في أن يلتقط صورة للمعنى أو جزءاً منها، ثم يدعُ المخاطب يستكمل الصورة مستمداً بما لديه من قوة الخيال والتصوير، فالشاعر بدل أن يخاطب العقل المحدود عند المتلقّي يجب أن يخاطب خياله الواسع الرحب وعاطفته الخصبة الغزيرة. فللمخاطب دورٌ فعّال وإسهامٌ كبير في إكمال الفسيفسا الشعري الذي يرسمه الشاعر. إذاً يحذّر سيد قطب الشاعر من أن يعطي للمتلقّي صورة كاملة من أفكاره ويستطرد أجزاءها بشكلٍ كاملٍ؛ لأن ذلك قد يؤدّي إلى الانكماش الفكري والجمود العاطفي لدى المتلقّي، أضف إلى ذلك أن الشعر يفقد عندئذ دوره ومفعوله في حثّ المخاطب على استقصاء وتنقيب نفسية الشاعر للكشف عما يجول بداخله، بدون الاطّلاع على ما يختلج في ذات الشاعر لن يعود بالإمكان فكّ الطلاسم عما يحيط بالشعر من الغموض والألغاز (ن.م: ٦٣-٦٤). خلاصة القول أنّ الشاعر لا يجوز له أن يفتح أبواب فكره على مصراعيها للمتلقّي.

ثم تطرّق سيد قطب إلى شواهد شعرية فقدت غضاضتها ونضارتها لا لشيء سوى لأنها قدّمت للمتلقّي صورة كاملة تستوعب المنظومة الفكرية والعاطفية للشاعر على قدمٍ وساق؛ فخذ منها بيتين يتعلّقان بعمر بن أبيربيعة:

إِنَّ خَيرَ النِّسَاءِ عِندِي طُرَّاً مَن تَوَاتِي بِوَصلِهَا مَا هَوَينَا
فَاذكُرِي العَهدَ وَالمَوَاثِيقَ مِنَّا يَومَ آلَيتِ لَا تُطِيعِينَ فِينَا

يرى سيد قطب أن الشاعر المذكور منح البيت عذوبة وجمالاً بعد أن حذف المفعول لـ"لا تطيعين" حيث أطلق الخيال ليذهب كل مذهب لحدسِ وتخمين المفعول به، ولكن الشاعر ذكر المفعول في البيت التالي حيث لم يكن بحاجة إلى ذكره مما أدّى إلى هدم ونسف الروعة التي أقامها الشاعر في البيت السابق:

قَولَ وَاشٍ أَتَاكِ عَنَّا بِصُرمٍ أَو نَصِيحٍ يُرِيدُ أَن تَقطَعِينَا

عنى الشاعر أنّ حبيبته أقسمت بأنها لن تطيع أقوال الوشاة والعذّال حول الحبيب، من الواضح أنّه في حال عدم ذكر الشاعر المفعولَ وهو "قول واشٍ" لم يلتبس ولم يغلق المعنى على المخاطب، بل كان في تلك

الحالة يوسّع ويبسط في المفهوم ويجعل فكر المخاطب المتلقّي يتسكّع في آفاق المعاني الرحبة ويجني من ثمارها اليانعة (ن.م: ٦٤).

دور الإلهام في نظم الشعر

لقد طرح سيد قطب المزيد من آراءه النقدية حول الشعر في كتاب أسماه بـ «كتب وشخصيات» (١٩٨٣: ٤٢ وبعدها)؛ من أبرز وأهمّ ما تناوله الكتاب رؤية نقدية تحاول الإجابة عن سؤال هامّ ألا وهو: هل تكون العناصر المقوّمة للشعر ناجمة عن عقلية الشاعر وذكائه أم أنها وليدة الإلهام الذي هو خارجٌ عن نطاق العقل والذكاء، أم أنّ عملية الشعر هي حصيلة امتزاج العقل والإلهام واندماجهما معاً. إنّ عملية الشعر في منظور سيد قطب تتمّ عبر مرحلتين تاليتين (ن.م: ٤٢-٤٣):

أ) يطرأ على نفس الشاعر ما يترك عليها بصماته من حادث خارجيّ أو حالة نفسية أو كلا الأمرين.

ب) تتأثّر نفسية الشاعر بما ينتابها من تجربة شعورية ويتجاوب معها، وهذا التأثّر يختلف باختلاف طبيعة الحادث الذي يمرّ به الشاعر، ومدى الحساسية التي يُبديها بالإضافة إلى ما تتميّز به شخصية الشاعر.

التداعيات والانطباعات التي تُفرزها نفس الشاعر إثر التجربة الشعورية التي يمرّ بها سرعان ما تُترجم إلى منظومة لفظية وإيقاعية تشكّل في نهاية المطاف كلاماً متناغماً موزوناً سمّي بالشعر. يحمل هذا الكلام في تضاعيفه الأحاسيس والذكريات التي أثارتها نفس الشاعر، فإنه في الحقيقة بمثابة مرآة صافية تعكس ما يجري في أغوار النفس من العواطف والمشاعر. المعانى والآراء في رؤية سيد قطب تجري وكأنها سفينة تجري على أمواج هائجة ومتلاطمة من خضمّ المشاعر والأحاسيس داخل الشاعر. إذاً يعتبر سيد العواطف الجيّاشة الأتون الذي تنصهر فيه أفكار الشاعر فتلتهب وتتأجّج بنيرانها حتى تتحوّل إلى كتلة من الدفئ والحرارة تُلهب وتأجّج بدورها مشاعر المتلقّي. يستنتج سيد قطب ممّا قاله حول الشعر أن الشاعر يستوحي الشعر من عالم سامٍ يفوق عالم العقل والمادة، فلا يتجاوز دورُ العقل في عملية إبداع الشعر من تنسيق الكلمات في سلك الأوزان واختيار القوافي المتناغمة مع موسيقا الشعر، وكل ذلك لا يشكّل سوى جسد الشعر وقشرته، ولكن الإلهام الذي هو بمنزلة الروح والدم فإنه يبقى خارج إطار العقل والضيّق (ن.م: ٤٣-٤٤).

من هو الشاعر؟

الشاعر في منظار سيد قطب هو من يمتلك طاقة كبيرة من الشعور بالحياة ومن عنده القدرة على التعبير عن مشاعره للآخرين. فالشاعر هو الذي سبر أغوار الحياة حتى حصل على رصيد ضخم من الحنكة والخبرة تؤهّله لأن يكون وسيطاً بين الحياة والناس، إذن الشاعر هو إنسانٌ ألمعيّ وموهوب يستلهم بخياله المجنح وإحساسه المرهف وشعوره الرقيق بتجارب شعورية سامية، تجعله إنساناً فريداً ومتميّزاً له وظيفته الخاصّة تجاه الحياة (ن.م: ١٤). لم ينجح الشاعر في مهمته الشعرية إلا إذا اتّسم بخصيصتين بارزتين (ن.م):

١.أن يكون شعوره وانطباعه عن الحياة أدقّ وأعمق وأبرز مما لدى عامّة الناس ولكن شريطة أن يكون على صلة معهم فلا يعيش بمعزلٍ عنهم.

٢. أن يحاول في استخدام أجمل وأفضل أسلوب يعبّر به عن تجربته الشعورية ويفصح من خلاله عن أفكاره وشخصيته مواقفه تجاه. هذا يعني أن الشاعر يجب أن تحصل عنده رؤية خاصّة تنمّ عن انطباعاته الشخصية وقناعاته الفكرية التي يفسّر بها آماله وآلامه للمخاطب المتلقّي.

يقول سيد قطب في هذا السياق أيضاً إن الشاعر الأمثل يستطيع بشخصيته الفذة والفريدة أن يمدّ جسراً بين رموز الحياة وجماهير الشعب، فالمتوقّع منه أن يفسّر الحياة كما يراها هو لا كما يراها الآخرون، وأن يغوص ويتوغّل في خبايا الأشياء وبواطنها بشكل يزيل الستار عن وجه الحقائق ويجعل المخاطب يتلقّى الحقيقة بصورةٍ ناصعة لا تشوبها الشوائب (راجع: قطب، ١٩٩٦: ٧٠). فالصور التي يعرضها الشعراء تختلف وتتنوّع طالما أنها تنبع عن وجهات نظر مختلفة، فيكون الشعر أشبه ما يكون بالمعرض الذي تُعرض في صورٌ ولوحات تشكّل مع اختلافها منظومة فسيفسائية رائعة للحياة.

إن مهمة الشعر بوصفه فنّا من الفنون تعمل على إزاحة اللثام عن وجه الحياة، والكشف عن رموزها وألغازها؛ كلّ شعر في الحقيقة يدلّ على المنظار الذي ينظر من خلاله الشاعر نحو الحياة. هذا المنظار قد يكون متفائلاً وقد يكون متشائماً، ولكنّه على أيّة حال يفتح أفقاً جديداً أمام ناظري المتلقّي يرى فيه ما لم يره من ذي قبل، فالشعر في نظر سيد قطب جولة يقوم بها الشاعر في مجاهل الحياة ومتاهاتها يستلهم في غضونها ما يكوّن لديه تجربة شعورية موحية وينقلها بدوره عبر آلية الشعر إلى المخاطب. وكلّما احتلّت جولة الشاعر الروحية والخيالية حيّزاً أكبر ومساحة أوسع كانت حصّته من أسرار الكون أكثر وأوفر (٧٣).

ثم يتطرّق سيد قطب إلى مصداقية الشاعر ودورها في إنجاح المهمة الشعرية ولكن المصداقية التي يشير إليها سيد قطب لا تنصبّ في إطار أخلاقي بحت بل ما أراده سيد من المصداقية هو ما يعبّر عن عواطف الشاعر الصادقة والتجربة الشعورية التي مرّ بها، ومن ثمّ سمّاها سيد قطب بالمصداقية الفنية، نجد رأي سيد قطب في هذا المجال عينه لدى العقّاد أيضاً فالأدب في مرآه لا يكون أدباً حالما لا يعبّر عما يجري بداخل الأديب من تجربة شعورية صادقة وموحية (نقلاً عن: اليافي، ١٩٩٣: ٦٤). أعطانا سيد قطب صورة واضحة عن الشاعر في أبياته التالية حيث أكّد فيها على ضرورة ما يمتلكه الشاعر من رقّة الشعور وتأثّره بمظاهر الحياة البشعة؛ فالشاعر لا يرضى عن الحياة إلا إذا صفت من الأدران والأقذار التي شوّهت صورتها بالرغم من الناس الذين يعشقون الحياة بكلّ ما فيها من الأرجاس والشوائب؛ فللشاعر إحساسٌ أرقّ من نسيم الصباح فيستحثّ مشاعره ما يواجهه من آلام الحياة ومآسيها:

النَّاسُ تَقنَعُ بِالحَيَــاةِ وَتَرتَضِي مِنهَا مَحَاسِنَ شُوِّهَت بِمَثَالِبِ

وَالشَّاعِرُونَ تَؤُزُّهُـــــم أَدرَانُـها يَبغُونَهَا لَم تَمتَزِج بِشَوَائِـــبِ
حِسٌّ أَرَقُّ مِنَ الأَثِيرِ يُهِيجُـــهُ مَا قَد تَمُرُّ عَلَيهِ مَرَّ اللَّاعِـبِ
وَهِيَ الحَيَاةُ لِمَن يَرِقُّ شُعُورُهُ أَلَمٌ وَأَن يُكَثِّفَ فَلذَةَ رَاغِـــبِ

(قطب، ١٩٩٢: ٥٣)

شاعر الألفاظ وشاعر العاطفة

اهتمام سيد قطب بعنصر العاطفة والإحساس وضرورة توفّرهما لدى الشاعر جعله يصنّف الشعراء إلى فئتين (قطب، ١٩٩٦: ٧٦-٧٩):

الفئة الأولى هي فئة لها عاطفة جافّة كجفاف فلاة قاحلة جدباء لا ماء فيها ولا نبات، فإنها لا تميل إلى الإفاصح عمّا يساورها من العواطف والأحاسيس بتاتاً ولا تبلور في أشعارها شخصية الشاعر الحقيقية، فتظلّ مهمة الشاعر عندها مهملة ومهمّشة، زد على على ذلك أنّها تصبّ معظم همّتها في رصّ الألفاظ وشحنها بالمعاني والأفكار التي لم تنمّ عن تجربة شعورية صادقة بل في مجملها تكون محاولة شعرية مفتعلة لمواكبة الأحداث والتماشي مع قضايا الساحة. فمادامت هذه الفئة لم تعمل بوظيفتها الشعرية ورسالتها الفنية فإنها تبقى مسيئة للشعر ومتهاونة في قضاياه.

أما الفئة الثانية فهي التي يعلّق سيد قطب على صدرها أوسمة الفخر ويمدحها بكلمات تفيض بنبرات الثناء والإطراء، فإن هذه الفئة تهتمّ في أشعارها بالعاطفة الجيّاشة والإحساس المتدفّق قبل اهتمامها بالألفاظ والمعاني. فالشعر لا يعني عند سيد قطب سوى جذوة شعورٍ وشرارة عاطفة تندلع في قلب الشاعر. فالشعر من دون عاطفة رقيقة وإحساس صادق أشبه ما يكون بالهشيم الذي تذروه الرياح:

إِنَّمَا الأَلفَاظُ وَالمَعَى قُشُورٌ غَيرَ إِحسَاسٍ رَقِيقٍ مُلهَمِ

المقصود بـ «أعذب الشعر أكذبه»

رأي سيد قطب في هذه العبارة يختلف عن غيره اختلافاً جوهرياً؛ ربما ذهب البعض في تفسير العبارة إلى أن الشعر والكذب تؤأمان، فاعتبروا بناءاً على ذلك الشاعر كاذباً، فرفض سيد هذا التفسير الخاطئ ومحاولاً إعطاء العبارة تفسيراً جديداً ينسجم مع مكانة الشاعر السامية، فإنه يعتقد أن الشاعر أقدر من الفيلسوف في استيعاب الحقيقة واكتناه ظرائفها وبما أنّهما يختلفان في الطرق التي توصلهما إلى الحقيقة، يختلفان أيضاً في طرق التعبير عنها (ن.م: ١٣)؛ ثم يقول إنّ الفيلسوف يبحث جاهداً وراء حقيقة الحياة وأحداثها بما في مقدوره العاطفي والفكري، وذلك بمعزل عن ضوضاء المجتمع وغوغاء الحضارة. أما الشاعر في نظر سيد قطب فإنه يدخل في معترك الحياة منغمساً في غمراتها ومتناغماً مع الأنغام التي تعزفها قيثارة الحياة فيتحوّل إلى ناطقها يتحدّث عن لسانها. فبالتالي يكون الشاعر في تجاوبه مع الحياة وتبادله العاطفي معها أصدق من

الفيلسوف الذي لم يتعدّ كونه ناظراً إلى الحياة وما يجري فيها. ثمّ إن الشاعر في رأي سيد قطب يحلّق في آفاقٍ متناهية مستمدّاً من آليات الخيال والعاطفة التي تشقّ طريقها إلى نفوس المستمعين وتترك عليها بالغ الأثر، وذلك بالرغم من الفيلسوف الذي يحشر نفسه في زاوية حرجة من الكَون موظّفاً آليات قاسرة قلّما تحرّك ساكناً.

الشاعر والأيام

من الرؤى التي أدلى بها سيد قطب في مجال الشعر هو ما يتعلّق بضرورة المواكبة الشاعر للعصر فيقول سيد بهذا الصدد إنّه يجب على الشاعر أن يتواءم مع الظروف التي يمرّ بها بعواطفه وأحاسيسه والأساليب البيانية التي يؤظّفها في شعره (ن.م: ٧٣). يرى سيد قطب أنّ الشاعر إذا كان صادقاً في مشاعره وأقواله فإنه سيكون صادقاً حتماً في بلورة صورة صادقة عن العصر الذي يعيشه (ن.م). ثم أشار سيد قطب إلى الشعراء الشباب المصريين الذين عاصروه ليعطينا مثالاً بارزاً للشعراء الذين يواكبون عصرهم، حيث إنّهم أعطوا صورة واضحة ناصعة عن العصر تعكس الظروف المصرية وما يسودها من حالة التشويش والاضطراب والإرتباك، فإنهم نجحوا في تجسيد شخصية المواطن المصري التي تعاني حالة الضياع الروحي والقلق النفسي في ظلّ الظروف السياسية والاجتماعية المخيّبة للآمال (ن.م: ٧٣-٧٤).

ثمّ تحدّث سيد بالمناسبة عن الظروف السيئة التي جثمت على صدر البلد وضيّقت الخناق على المواطنين، فينتقد سيد قطب الشعب المصري للصمت الذي يسوده وسط هذا الظلام القاتم إذ أنّه خير دليل على هيمنة روح اليأس والخيبة على الشعب، ثم يقول والأسف يعصر قلبه ويملأ كيانه إن الشعب المصري أمام خيارين: فإنه إما أن يثور على الظروف القاسية التي يمرّ بها رافعاً نبرات الغضب وصرخات الرفض أو يحيى حياة الظلم والهوان (ن.م: ٧٤). ثم استشهد سيد قطب بأبيات نظمها الشاعر «عبدالعزيز عتيق» مصوّراً فيها المعاناة التي عاشها الشعب المصري، فالشاعر يتلهّف على الشعب الذي ينام الليل جوعاً ويعيش وكأنه غريب في دياره، ثم يقارن بين الإنسان المصري الذي يرضخ تحت الشقاء والآلام والإنسان الغربي الذي ينعم بحياة الرغدة والرخاء (ن.م: ٧٥):

بِلَادٌ يَبِيتُ الأَهلُ فِيهَا عَلَى الطَّوَى وَيَحيَا بِهَا الغَربِيُّ يَنعَمُ فِي الخَيرِ
بِلَادٌ يَعِيشُ الأَهلُ فِيهَا كَأَنَّـــــــمَا هُم غُرَبَاءِ الدَّارِ عَن ذَلِكَ القُطرِ

الفرق بين الشاعر والرسّام

أوجه التشابه والتباين التي توجد بين الشعر والرسم لفتت انتباه الكثيرين منذ أقدم الأزمنة، أما التشابه بينهما يعود إلى الشحنة التصويرية التي يتمتعان بها كلاهما. ولكن ثمة أمورٌ يختلفان فيها، فبينما «يتباهى الرسّام على الشاعر بأنّ الرسم أكثر تأثيراً وإيحاءاً على الناس، يتسامى الشاعر بدوره على الرسّام بأن الشعر دون الرسم يمتلك طاقة تعبيرية هائلة تأخذ معها المخاطب في جولة شعرية ممتعة، إذن أن الأثر الذي يتركه

الشاعر على المخاطب أثرٌ يدوم ويستمرّ بتأنٍ وتمهّل، وليس أثراً آنياً ومقطعياً، كما هو الشأن في الرسم» (انوشيرواني وآتشي: ١٣٩١: ٦). أخذ سيد قطب بدوره يجري مقارنة بين الشعر والرسم فإنه يرفض أن يكون هناك فارقٌ بين الشعر والرسم من حيث الطاقة التعبيرية والشعورية ويعتقد أنهما يختلفان في الأساليب والتقنيات المستخدمة فيها. فبينما يمتلك الشاعر طاقة سردية كبيرة تساعده على العرض المتسلسل للأحداث فإن الرسّام ليس عنده آلية السرد والرواية ولكنّه يعتمد على أبرز وأخصب لحظة يقتنصها عبر عملية الرسم (قطب، ١٩٩٦: ٢٠). مع ذلك فإنّ الرسّام في رأي سيد قطب فنّان حقيقيٌّ من شأنه أن يضفي على الرسم ألواناً وصوراً من خياله تؤدّي إلى بلورة جوانب ضبابية في شخصية الرسام، كما أن الشاعر الحقيقي يعمد إلى إبراز شخصيته وعواطفه من خلال تجارب شعورية موحية ينقلها إلى المخاطب المتلقّي (ن.م: ٢١).

الغزل وأسلوبه البياني

رفض سيد قطب رأي النقّاد الذين يعيبون على الشاعر استخدامه للألفاظ القاسية في الغزل وحجّته في ذلك: إنّ الحبّ شأن العواطف الأخرى يمرّ بحالات مختلفة، فإنه تارة يخمد ويهدأ ويستقرّ وتارة يذكو ويثور، وكلّ حالة منه يتطلّب نمطاً بيانياً وأسلوباً تعبيرياً خاصّاً (ن.م: ٦٦)، فالحبّ إذا هاج وغلى في داخل المحبّ يحوّله إلى كتلة عاطفية ثائرة تُخشى بوادره، فإنه ربما يقوم بتصرّفات فظّة أو يتفوّه بكلمات نابية عنيفة لا يحمد عقباه. وفيما يتعلّق بالتغزّل بالحبيبة يرى رأياً ملفتاً للنظر، فإنه فإنّه ضمن مقارنته بين الشاعر والشرطي يقول إنّ مهمة الشاعر تختلف عن مهمّة الشرطي الذي قد تدعوه ضرورة مهنية إلى وصف أجزاء المرأة وصفاً دقيقاً، فالشاعر المتغزّل لا ينظر إلى الحبيبة نظرة جسدية بحتة على غرار الشرطي بل يصفها برؤية رومانسية لا يرى جمالها الجسدي الفاتن فحسب بل يرى ما هو أجمل وأفتن، إذاً تكون رؤية الشرطي إلى المرأة رؤية جسدية جزئية، ولكن رؤية الشاعر إليها رؤية إنسانية وعاطفية تتّسم بالشمولية (ن.م: ١٧).

دور الخيال في الشعر

يعتبر سيد قطب الخيال جسراً يربط الشاعر بالحقيقة المختبئة عن الأذهان، فالخيال الذي يتمتّع به الشاعر يسمو به إلى آفاق سامية يحلّق في رحابها باحثاً عن الحقيقة، فالخيال هو الأقدام التي تزوّد بها الشاعر ليتجوّل في مجاني الحقائق البهية ويستنشق شذا أريجها الذكية. شبّه سيد قطب الخيال بالإكسير الذي عندما يشربه الشاعر يقطع المسافات الشاسعة بين الواقع والآمال ويجعله على مقربة من الأحلام، وكأنه يعانقها فإذا عجز الواقع المرير من إيصال الشاعر إلى آماله فإنه لابدّ من أن يلوذ بعالم الخيال لينصب فيه فخّاً يتصيّد به الآمال الآبدة (ن.م: ٣٢). فلا يتسبّب الخيال في رأي سيد بابتعاد الشاعر عن الواقع وسقوطه في غياهب الوهم ومجاهل التصوّر الزائف بل الخيال يساعد على إزالة الفواصل وملء الفراغ الموجود بين الواقع والحقيقة

(ن.م: ٣٢-٣٣)، حيث يفتح نوافذ أمام الشاعر يرتمي منها إلى أحضان الحقيقة ليعود إلى الواقع المعاش بعد أن حمل معه حظوة كبيرة من الرومانسية إلى الحاضر الذي يعيشه.

ولنأخذ بنظر الاعتبار أنّ سيد قطب يعتقد أنّ ثمة تناغماً وتجاوباً بين الخيال والغرض الشعري؛ بحيث لو أراد الشاعر أن يرثي فلا يحقّ له أن يتطرّق في الرثاء إلى أغراض أخرى، إذن أكّد على ضرورة الوحدة الموضوعية والربط بين أجزاء القصيدة ارتباطاً ديناميكياً عضوياً بحيث تشكّل القصيدة منظومة متراصّة متماسكة، لأنه في حال عدم اهتمام الشاعر بالوحدة الموضوعية سرعان ما تتحوّل القصيدة إلى مجموعة غير مترابطة الأجزاء فتبدو وكأنّها جزائر متجاورة لا علاقة بينها (ن.م: ٤٣-٤٤).

الطبيعة في الشعر العربي

مما ذهب إليه سيد قطب حول مكانة الطبيعة في الشعر العربي هو أنّ الإحساس الذي يبديه الشاعر العربي إزاء الطبيعة قلّما يكون إحساساً صادقاً حقيقياً (قطب، ١٩٨٣: ٥٨)، ذلك لأنّ الشاعر العربي حينما يريد وصف الطبيعة لا يلتقط منها سوى صُور خلابة مريحة تكاد تكون فارغة من الروح والحياة، فكأنّ الطبيعة في الشعر العربي كتلة هامدة من الأجزاء تفتقر إلى الحياة. على إيّة حال فاطبيعة في الشعر العربي مادّة دسمة يستثمر الشاعر مناظرها لشحن قصائده بالأوصاف والتشبيهات الرائعة، فلا نرى فيه مجالاً تحتكّ فيه عواطف الشاعر بالطبيعة كعنصرٍ حيّ ينبض بالحيوية والحماس. يخلو الشعر العربي من النزعة الصوفية والديناميكية القائمة على رؤيةٍ شموليةٍ في منظور سيد قطب.

كما أشار سيد بهذا الصدد إلى نظرية راجت في الأوساط الأدبية رواجاً كبيراً ألا وهي أنّ أجواء الطبيعة وبيئة الصحراء بجبالها الشامخة وصحراءها المترامية وسماءها الزرقاء، هي من أفضل وأخصب البيئات التي تفجّر الطاقة الخيالية والشعورية لدى الشاعر، بحيث تأخذه إلى التطواف في فضاءها الرحب ومجالها الفسيح، فتملي عليه قوة شاعرية هائلة ينشد بها أجمل الأشعار وأروعها، إلا أنّ سيد قطب لا يوافق هذا الرأي مع اعترافه بامتلاك بيئة الطبيعة والصحراء طاقة إيحائية هائلة معتقداً أنّ إلهام الطبيعة يظلّ سطحياً هشّاً لا يتجاوزه إلى الأعماق (ن.م: ٥٤).

خفوت اللون الإنساني في الشعر العربي

الشاعر الراقي والمستنير في عقلية سيد قطب هو الذي لا يهتزّ للأفكار المتجمّدة والرؤى البعيدة عن الواقع المعاش بل إنه يتمكّن من توظيف طاقاته الشعورية للتوغّل في باطن الوجود والتفكير في لطائفه ودقائقه. فهو إنسانٌ تمكّنه أفكاره الشحذة ومشاعره المتوهّجة أن يطلّ على مشارف الحياة ويتحسّس نبضات الوجود وخفقات الكون ويستغلّها لتشحيذ أحاسيسه وإخصاب مواهبه البشرية، والشيء الذي يُعرب سيد من أجله عن أسفه وألمه هو افتقار الشعر العربي أو الجزء الأكبر منه إلى ثورة العواطف البشرية وتظاهرات النفس الإنسانية،

هذا لا يعني أن الشعر العربي خالٍ من سموّ الأفكار وعلوّ المعاني بل إنّه مع ذلك تبدو فيه الطموحات الإنسانية والهواجس البشرية خافتة اللون وضئيلة القدر (ن.م: ٤٩).

نظرة عامة إلى الشعر الفارسي عند سيد قطب (حافظ الشيرازي أنموذجاً)

إقبال الأدباء والنقاد المصريين لاسيّما سيد قطب على ديوان حافظ وغزليّاته[١] ينطلق من شوق دفين لديهم إلى تراث الشرق لخصلتهم الشرقيّة العميقة، ولسأمهم من كثرة ما طالعوه من ترجمات الأدب الأوربي التي لا تنسجم في كثير من نفحاتها مع روح الشرقيين. إنّ فكرة حافظ الشيرازي ورؤيته العرفانية تتّفق والنظرةَ الروحيّة لدى سيد قطب[٢]، إذ يصرّح بأنّ عنايته بدراسة أشعار الشرقيين، إنّما باعثها هو أن يروي نفسه من مناهل هي أقرب إلى الروح. (نقلاً من الندوي، ٢٠٠١: ١٠٩) يقول سيد قطب متحدّثا عن حافظ وغزله: «لقد أخلدتُ – مع حافظ– إلى الغناء العذب بروح صادقة، لا تكدّرها شوائب الحياة، ولا هموم العيش، ولا أحقاد الناس، ولا تفسدها كذلك غواشي القلق، ولا هموم الفكر، ولا الجدل الذهني العقيم.» (قطب، ١٩٨٣:٦٨)

يرى سيد قطب أنّ أشعار حافظ ستعمل على تغذية الشعر العربي بالروح الغنائية بعدما غرق الشعر العربي الحديث في موجة فكريّة ويعتقد أنّ سبب طغيان هذه الموجة يعود إلى اهتمام الشعراء المعاصرين بمواكبة موجة الأسلوب اللفظي أو الإيقاعي التي اهتمّت بالمحسّنات البديعيّة الجوفاء والإيقاع الموسيقي الذي لا يتّسم بالحياة ولا بالجديّة. (نفس المرجع: ٧٠) يشير سيد قطب إلى خصائص أشعار حافظ الشيرازي البارعة وميزاتها وما فيها من عطاء للعالم العربي، ويركّز على النقاط التالية: (انظر، نفس المرجع: ٧١ وبعدها)

– زيادة ثروة الأدب العربي، وإثارة ألوان جديدة من التفكير وفنون من الشعور الخصب.
– زيادة رصيد الغناء في الشعر العربي.
– استرواح عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه، وغيبيّته وتصوّفه.

نتائج البحث

أهمّ ما توصّلنا إليه عبر هذا البحث هي:

١–بالنسبة لمفهوم الشعر رأينا أنّ سيد قطب ينظران إلى الشعر كفيض عميق دافق من عالم روحانى قبل كلّ شيء، ثمّ يقول بأنّ الشعر تعبير عن ذاك الفيض، أى: تعبير عن الذات الشاعرة، واستبيان للنفس الإنسانية، ومحاولة للكشف عن جوهر الأشياء، والبوح بنظرة حول الكون والحياة، وذلك بلغة عاطفية إيقاعية موزونة تتّسم بالفكرة. نعم، إنّ هناك بعض التفاوت فى نسبة أهمية العناصر عنده؛

٢-كان سيد قطب متزوّداً بثقافة أدبية عملاقة جاءت حصيلة لجولته في رحاب القرآن الكريم وتطوافه في رياض الشعر العربي الأصيل.

١- تناولت آراء سيد قطب الأدبية جوانب مظلمة وضبابية من الشعر قلّما تطرّق إليه الآخرون.

٢- يعتبر سيد قطب الشعر من الفنون الجميلة وهو في منظاره عبارة عن التعبير عن تجربة شعورية في ألفاظ موحية.

٣- الفنون الجميلة بما فيها فنّ الشعر ترمي إلى إيصال البشر إلى العالم المثالي والكمال المرجوّ كلّاً حسب دأبه ومنهجه.

٤- الشعر الحقيقي في منظار سيد قطب هو الذي يتجاوز الأطر الضيّقة ويواكب التطلعات الإنسانية.

٥- الشعر عند سيد قطب ليس مجرّد صناعة بل هو إشراقة في القلب وإنارة في العقل ودفقة عاطفية تعبّر عن طاقة إيحائية تعتري نفسية الشاعر.

٦- إن الألفاظ تؤدّي دوراً كبيراً في تشكيلة الشعر حيث إنّها بمثابة جسر يوصل وينقل تجربة الشاعر الموحية إلى المخاطب المتلقّي.

٧- ثمّة وجوه تشابه وافتراق بين الشعر والقصّة. أهمّ نقطة تجمع بين الشعر والقصّة هي اشتراكهما في تجسيد ذكريات والأحاسيس ونقطة الافتراق تتمثّل في أنّ للشعر طابعاً سردياً روائياً ولكن للقصّة صبغة تركيزية فإنها تركّز على الأحداث الهامّة. ثمّ أن الشعر تبتني على لغة الرمز بينما تقوم القصة على الشفافية والصراحة.

٨- الشعور والإحساس يكوّنان عنصرين أساسين للشعر وهما الركيزتان الأساسيتان اللتان تقومان عليهما صرح الشعر، فعلى الشاعر أن يكرّس جلّ اهتمامه فيهما. ثمّ يليهما في الأهميّة والمكانة المعنى واللفظ.

١٠-الفارق الأساسي بين الشعر والنثر يكمن في الطاقة التعبيرية التي يختلفان فيها. فالشعر بسبب احتواءه على الخيال يمتلك طاقة تعبيرية هائلة بينما النثر تنعدم فيها تلك الطاقة لانعدام عنصر الخيال فيه أو قلّته.

١١- عملية الشعر في رؤية سيد قطب بمجملها ناجمة عن الإيحاء والإلهام وليس وليدة العقل والمنطق.

١٢- الشاعر الحقيقي عند سيد قطب هو من يحظى بشحنة كبيرة من الشعور بالحياة، إذ أنه يقوم بدور الوساطة بين الحياة والناس، فلابدّ من أن يكون إنساناً ألمعياً موهوباً يتلقّى من أنوار الحياة وأسرارها ما لا يتلقّاه غيره.

١٣- يفضّل سيد قطب العاطفة على الألفاظ، ذلك لأنّ الشعر عنده ليس سوى جذوة شعور وشرارة عاطفة تندلع في قلب الشاعر، فالشعر حالما يفتقر إلى العاطفة يتحوّل إلى كتلة هشيم تذروها الرياح.

١٤- عنصر الصدق هو من أهمّ العناصر التي لا بدّ أن يتوفّر لدى الشاعر، فالشاعر الصادق هو الذي يتناغم مع الأنغام التي تعزفها قيثارة الحياة ويتحدّث عن لسانها.

١٥- الشحنة التصويرية التي يتمتّع بها فنّ الرسم تفوق الشعر كما أنّ الشعر يتغلّب على فنّ الرسم من حيث الطاقة التعبيرية.

١٦- يسوّغ سيد قطب استخدام الشاعر للألفاظ الفظّة رغم أنّ النقاد لا يجوّزون له ذلك، والحجّة التي يتذرّع بها سيد هي أنّ الغزل لا يسير دائماً على رتيبة واحدة بل إنّه تارة يلين وأخرى يشتدّ، فإنه إذا لأنّ فهو يتطلّب ألفاظاً لينة وناعمة، ولكنه إذا قسا واشتدّ فإنه يستوجب ألفاظاً عنيفة وقاسية.

١٧- يحتلّ الخيال في منظومة سيد قطب الفكريّة حيّزاً كبيراً فإنه بمثابة الأجنحة التي يحلّق بها الشاعر في الآفاق السامية باحثاً عن الحقيقة، فبدونه تظلّ الحقيقة بعيد المنال.

١٨-الطبيعة في منظور سيد قطب ليس كومة جامدة عديمة الروح بل هي منظومة حيّة تتناسق أجزاءها في ارتباط عضوي ديناميكي.

١٩- يعتقد سيد قطب أنّ الشعر العربي المعاصر يفتقر في كثير من نماذجه إلى القضايا الإنسانية، ويبدو اللون البشري فيه باهتاً وخافتاً، الأمر الذي أفسد على الشعر هويّته ورسالته.

قائمة المصادر والمراجع

١- الخالدي، صلاح عبدالفتّاح (١٩٩١م)؛ سيد قطب؛ من الميلاد إلى الاستشهاد، ط١. دمشق- بيروت: دارالقلم- الدار الشامية.

٢- اليافى، نعيم (١٩٩٣م)؛ أوهاج الحداثة، دمشق: اتّحاد الكتاب العرب.

٣- حسين، عبدالباقي محمد (١٩٩٣م)؛ سيد قطب؛ حياته وأدبه. ط٢. المنصورة: دار الوفاء.

٤- سرباز، حسن (١٤٣١ق)؛ «سيد قطب وتراثه الأدبى والنقدى». مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس قم). العدد العاشر. السنة السادسة، ص ٤١-٥٥.

٥- طبانة، بدوي (١٩٨٥م). التيارات المعاصرة فى النقد الادبى، دار الثقافة.

٦- العقّاد، عباس محمود. (١٩٨٨م). أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب. ط٦. القاهرة: دار المعارف.

٧- غنيمي هلال، محمد (١٩٦٤م)؛ النقد الأدبي الحديث، ط٣، دار الشعب.

٨- قطب، سيد (١٩٨٠م)؛ دراساتٌ إسلاميّة، ط٥، بيروت- القاهرة: دار الشروق.

٩- قطب، سيد (١٩٨٣م)؛ كتب وشخصيّات. ط٣. القاهرة: دارالشروق.

١٠- قطب، سيد (١٩٩٢م)؛ ديوان. جمعه ووثّقه: عبدالباقي محمد حسين، ط٢. المنصورة: دار الوفاء.

١١- قطب، سيد (١٩٩٦م)؛ مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر، ط١، كولونيا- ألمانيا: منشورات الجمل.

١٢- قطب، سيد (٢٠٠٦م)؛ النقد الأدبي؛ أصوله ومناهجه، ط٩، القاهرة: دارالشروق.

١٣- الندوي، السيّد أبوالحسن (٢٠٠١م)؛ مُذكّرات سائح في الشرق العربيّ، ط١، دمشق: دار ابن كثير.

١٤- هوراس (١٩٨٨م). فن الشعر. ترجمة: لويس عوض. ط٣. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

List of sources and references

1- Al-Khalidi, Salah Abdel Fattah (1991); Sayyid Qutb; From Birth to Martyrdom, 1st ed. Damascus-Beirut: Dar Al-Qalam- Al-Dar Al-Shamiya.
2- Al-Yafi, Naim (1993); The Glow of Modernity, Damascus: Arab Writers Union.
3- Hussein, Abdul-Baqi Muhammad (1993); Sayyid Qutb; His Life and Literature. 2nd ed. Mansoura: Dar Al-Wafa.
4- Sarbaz, Hassan (1431 AH); "Sayyid Qutb and His Literary and Critical Heritage". Journal of Arabic Language and Literature, University of Tehran (Firdaws Qom). Issue 10. Year 6, pp. 41-55.
5- Tabana, Badawi (1985). Contemporary Trends in Literary Criticism, Dar Al-Thaqafa.
6- Qutb, Sayyid (1980); Islamic Studies, 5th ed. Beirut-Cairo: Dar Al-Shorouk.
7- Qutb, Sayyid (1983); Books and Personalities. 3rd ed. Cairo: Dar Al-Shorouk.
8- Qutb, Sayyid (1992); Diwan. Collected and documented by: Abdul-Baqi Muhammad Hussein, 2nd ed. Mansoura: Dar Al-Wafa.
9- Qutb, Sayyid (1996); The Poet's Mission in Life and the Poetry of the Present Generation, 1st ed., Cologne- Germany: Al-Jamal Publications.
10- Qutb, Sayyid (2006); Literary Criticism; Its Origins and Methods, 9th ed., Cairo: Dar Al-Shorouk.

[١] – ترجم هذا الديوان في مصر على عنوان «أغاني شيراز» لإبراهيم أمين الشواربي وهو يضم منظومة ومنثورة لأشعار حافظ الشيرازي.

[٢] – وهذا التطلّع الروحي كان نقطة اختلاف سيد قطب مع أستاذه العقّاد، إذ يقول سيد قطب بأن العقّاد كان رجلاً فكريّاً محضاً لا ينظر إلى مسألة ولا يبحث فيها إلا عن طريق الفكر والعقل. (نقلاً من الندوي، ١٠٩:٢٠٠١).